مركز باحث للدراسات الفلسطينية والاستراتيجية

التقدير نصف الشهري

تحليل للتطورات السياسية والأمنية في «إسرائيل»

www.bahethcenter.net
Email: baheth@bahethcenter.net
bahethcenter@hotmail.com

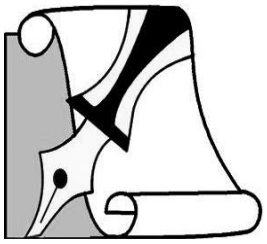

باحث للدراسات
الفلسطينية والاستراتيجية

تحليل نصف شهري للتطوّرات السياسية والأمنية في «إسرائيل»

أهداف المركز الرئيسية:

١ . إعادة فلسطين إلى موقعها الحقيقي كقضية مركزية للأمة.

٢ . الترويج للقيم الجهادية والنضالية في إطار استراتيجية تحرير فلسطين.

٣ . بناء علاقة متينة مع النخب والشخصيات المعنية بالقضية الفلسطينية.

٤ . إصدار دراسات وأبحاث وتقارير ذات بعد استراتيجي وتحليلي.

إشكاليات العلاقة الروسية ـ الإسرائيلية وتداعياتها الإقليمية والدولية

مدخل

مثّلت المنطقة الواقعة شرقيّ البحر المتوسط، منذ إندلاع الأزمة السورية في أواخر العام ٢٠١١، ساحةً خلفيةً للصراع والتنافس الأميركي– الروسي أولاً، والروسي– الإسرائيلي ثانياً. وكثيراً ما دار الحديث عن أنّ الوقائع الجيوسياسية التي تتشكّل في الشرق الأوسط بعد ما سمي بالربيع العربي، باتت تؤثّر تأثيراً مباشراً في الوضع الداخلي بل وفي الأمن القومي لروسيا نفسها.

وفي هذا المجال طرأ تغيير مهم على السياسة الروسية إزاء المنطقة منذ وصول فلاديمير بوتين الى الحكم لأول مرة في كانون الأول ١٩٩٩، وبدأت موسكو بطرق أبواب الشرق الأوسط، لاسيما بعد إعادة إنتخابه في العام ٢٠٠٤ حيث قام بزيارتين للمنطقة في العام ٢٠٠٥ ، والعام ٢٠٠٧ ، مما أعطى انطباعاً بأن الروس قادمون، وأن إحياء الدور الروسي في المنطقة ماضٍ على قدمٍ وساق. فموسكو، ومنذ بداية الأزمة في سوريا، وقفت بشكل واضح وصريح مع النظام السوري الذي يمثّل حليفاً استراتيجياً وفياً لها في المنطقة العربية في مواجهة النفوذ الغربي وفي مواجهة المجموعات المسلحة المتطرّفة والتكفيرية التي قدّمت لها الولايات المتحدة وحلفاؤها دعماً عسكرياً وإعلامياً وسياسياً، عبر إعلان المسؤولين الأميركيين عن تسليح تلك المجموعات في مواجهة النظام، وسياسياً من خلال المطالبة الملحة بإسقاط الرئيس الأسد، والعمل على إتخاذ خطوات قاسية ضدّه في مختلف المنتديات الإقليمية والعالمية.

الرئيس الروسي من ناحيته يدرك تماماً أن ثمة تماهياً وتداخلاً عضوياً، ما بين رأس النظام والنظام في سوريا بحيث إذا سقط الرئيس سقط النظام، وسقطت كل مؤسساته، وعلى رأسها المؤسسة العسكرية التي يعتبرها الروس، ومنذ الخمسينات من القرن الماضي، أحد العوامل الأساسية في استمرار الترابط الإستراتيجي بين موسكو ودمشق. ولذلك فإن أهم ما قاله فلاديمير بوتين لبنيامين نتنياهو عندما إلتقاه في موسكو، هو ما مؤداه أن تفكيك سوريا الذي تحلم به إسرائيل لاستخدامها كفائض جغرافي تنتهي فيه القضية الفلسطينية

ومشاكل الأقليات إنما يعني تفكك المنطقة، وتفكك المنطقة يعني حروب القبائل المتناسلة التي لاتنتهي والتي قد تنفع إسرائيل من حيث كونها دولة يهودية عنصرية تتحكم بالمنطقة لكنها تضرها لناحية تأبيد عدم الإستقرار الإقليمي المستدام.

من ناحية أخرى تدرك روسيا أنها إثر إنهيار الإتحاد السوفياتي عام ١٩٩١ خسرت أغلب المناطق الجيوستراتيجية المهمة لأمنها القومي، وقد وصف الرئيس بوتين ما جرى في حينه بأنّه أكبر كارثة جيوستراتيجية نزلت بروسيا، وبالتالي تعمل دوائر السياسة الخارجية الروسية الحالية بكل جهد من أجل المحافظة على المناطق ذات الأهمية الجيوستراتيجية المتبقية وتعزيز العلاقات الروسية مع الحلفاء لاسيما سوريا لأنها ترى في ذلك الدعم إستمراراً لنفوذها وامتداداً لأمنها القومي.

ومعلوم أن الإستراتيجية الروسية تنقسم إلى شقين: الأول يتمثّل في التوجّه نحو الدول الآسيوية، والثاني يتمثّل في الوصول إلى المياه الدافئة في محيط البحر المتوسط والتحكّم بالممرات والمضائق البحرية، وذلك بسبب معاناتها من حالة العزلة التي تفرضها عليها شواطئها البحرية المغطاة بالثلوج طيلة أيام السنة. وبذلك سعت روسيا إلى إيجاد حزام أو كتلة من الدول الصديقة لتقف بوجه القطبية الأحادية الأميركية وتداعياتها، وتسهم في ممارسة الضغط على واشنطن لكي تلزمها بقبول مساهمتها في عملية التسوية واثبات قدرتها ومكانتها على الساحة الدولية، الأمر الذي يفسّر سعيها لإقامة علاقات وثيقة مع الدول المناهضة للولايات المتحدة مثل إيران وسوريا، وقبلهما العراق، من أجل تحقيق التوازن الذي تستطيع من خلاله إعادة تأكيد وجودها النسبي في منطقة الشرق الأوسط.

لقد سعى بوتين منذ تسلمه زمام السلطة في آذار ٢٠٠٠ ، إلى إعادة روسيا كلاعب بارز إلى الشرق الأوسط وعمل مع جميع الأطراف في المنطقة، سواء أكانوا أصدقاء أم خصوماً تقليديين. وقد جعل سياسته ترتكز على تعريفه الخاص للمصالح الروسية، إنطلاقاً من وجهة نظر واقعية بحتة. وتضمنت هذه السياسة فيما تضمنته، تحسين العلاقات مع كيان العدو إثر تدهورها في أواخر التسعينات في عهد وزير الخارجية ورئيس الوزراء آنذاك يفكيني بريماكوف. وهناك عدة عوامل حددت سياسة بوتين إزاء إسرائيل، خصوصاً في سنوات حكمه الأولى. ومن بين هذه العوامل الصراع مع جمهورية الشيشان المنشقة في شمال القوقاز، وهو صراع بدأ في أوائل التسعينيات، وكان أساساً حركة إنفصالية علمانية أصبحت ذات طبيعة إسلامية متطرفة

بشكل متزايد. وقد شبه بوتين صراع بلاده ضد الإرهاب بصراع إسرائيل الإرهابية الأولى في العالم ضده!!! وعلى مر السنين، أجرى هذه المقارنة ذاتها في اجتماعاته مع عدة مسؤولين إسرائيليين رفيعي المستوى. ففي تشرين الثاني ٢٠٠٣ ، وصف رئيس الوزراء الإسرائيلي الراحل الإرهابي أرييل شارون الرئيس الروسي ب "الصديق الفعلي لإسرائيل". وكانت إسرائيل من بين الدول القليلة التي لم تنتقد بوتين على خلفية الإجراءات القمعية التي اتخذها في الشيشان. وفي حزيران ٢٠١٢ ، زار بوتين إسرائيل، وذلك قبل تسعة أشهر من قيام باراك أوباما بزيارته الأولى لها كرئيس للولايات المتحدة. وفي لقائه مع الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريس في القدس، قال بوتين: "تقوم مصلحة روسيا الوطنية على توفير السلام والإستقرار في الشرق الأوسط، والسلام والإستقرار للشعب الإسرائيلي. وليس من باب الصدفة أن يكون الإتحاد السوفياتي من بين المبادرين والداعمين لإنشاء دولة إسرائيل".

إن تدخل بوتين في سوريا بالذات يجعل الوضع، دون شك، أكثر تعقيداً بالنسبة لإسرائيل. وقد اجتمع نتنياهو ببوتين في موسكو في ٢١ أيلول٢٠١٥. وبدا أن ذلك الإجتماع قد هدأّ بعض المخاوف الإسرائيلية بشأن تدخل روسيا في سوريا. ففي أعقاب الإجتماع، قال نتنياهو: "في سوريا، حددت أهدافي، وهي حماية أمن شعبي وبلادي. لروسيا أهداف مختلفة. ولكنها لا ينبغي أن تتصادم [مع أهداف إسرائيل]". وبالتالي لابد هنا من طرح السؤال الأساسي : ما هي مكانة إسرائيل في هذه المعادلة المعقدة ؟

نشرت صحيفة «معاريف» مضمون مقابلة أجرتها مع أبرز خبراء إسرائيل في الشؤون السورية، ايال زيسر، حذر فيها من مستوى التفاؤل المفرط حول العلاقات مع الجانب الروسي والأحاديث عن التنسيق مع الروس في سوريا. وأكّد أنّ دراسة الموقف الروسي تشير إلى أنّهم لا يكترثون بإسرائيل، دون أن يستبعد أنهم في نهاية المطاف، قد يسقطون طائرات سلاح الجو الإسرائيلي، في حال تحليقها فوق سوريا. زيسر، الرئيس السابق لمركز موشيه ديان للدراسات الشرق أوسطية في جامعة تل أبيب، أضاف أنّ «روسيا جاءت إلى سوريا، ووجهت الضربات في كل اتجاه، واحتضنت حزب الله وإيران، بينما إسرائيل تأتي إليها لتقول إنها لا تريد مشاكل معها وتعالوا لننسق في ما بيننا، وتسمي (إسرائيل) كل ذلك أنه دفء في العلاقات».

ويتابع زيسر: «الروس لا يكترثون لنا، فنحن لا نعني لهم شيئاً، أتوا لتحقيق مصالحهم وجزء من هذه المصالح تتعارض مع مصالحنا، ولنقل ذلك بصراحة ووضوح. صحيح أن ليس من الحكمة أن نتورط ونجازف

في مواجهة معهم، وأن نعمل على تقليص الأضرار، لكن أن نسمي ذلك كله دفء علاقات، فهذا غير صحيح». ويرى زيسر أنّ «الطائرة الروسية التي اخترقت الأجواء الإسرائيلية لم تفعل ذلك بالصدفة أو نتيجة خطأ. فعلت ذلك لأن الروس لا يكترثون بإسرائيل...هم يزودون سوريا بمنظومات أسلحة متطورة، وينسقون ويتعاونون مع حزب الله وإيران... ورسالتهم تقول: جئنا إلى هنا لنبقى هنا ولنفعل ما نريد، سواء أرغبتم في ذلك أم لم ترغبوا».

وختم زيسر: «الروس يحتضنون (الرئيس السوري) الأسد ويساعدون نظامه وإيران وحزب الله، أما نحن فلا نريد مشاكل معهم. كيف يمكن الحديث عن دفء علاقات مع الروسي وهو يتكلم معنا في غرفة، بينما في الغرفة الثانية يحتضن حزب الله وإيران ويزودهم بالسلاح المتطور؟ الروس ليسوا أعداءنا ولا يجب تحويلهم إلى ذلك، لكن في المرة المقبلة الطائرة الروسية لن تتوغل كيلومتراً واحداً، بل ثلاثة كيلومترات، وفي المرة التي تعقبها سيطلقون صواريخ على طائراتنا في سوريا. ولهذه الأسباب علينا التنسيق معهم».

في هذا السياق أيضا كتب جيان كارلو فالوري، العضو الفخري في أكاديمية العلوم في معهد فرنسا، في

مقال نشره موقع "راشا إنسايدر" الروسي، أن هناك العديد من الإشارات التي تجعلنا نفكر في علاقات

إستراتيجية جديدة بين روسيا وإسرائيل. فيمكننا الآن الإفتراض بأنّ الدولة العبرية تعيد تقويم حالة تراجع

التدخل الأمريكي في الشرق الأوسط، وتحاول تحديد سياسة رديفة تقوم على تطوير العلاقات مع الإتحاد

الروسي. ويضيف أنّ العلاقات الشخصية السيئة بين الرئيس باراك أوباما ورئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين

نتنياهو لها أثر كبير أيضاً على هذا الصعيد. كما إن لموقف الولايات المتحدة والإتحاد الأوروبي إزاء الإتفاق

النووي مع إيران، الذي إنتُقد من قبل نتنياهو وكامل المؤسسة الإسرائيلية، تأثيراً واضحاً في المعادلة

الجيوسياسية الجديدة في المنطقة.

ويرى الكاتب أن من يعيد رسم خريطة الشرق الأوسط الكبير هي روسيا، التي ربحت حربها في سوريا،

وإسرائيل، التي إستوعبت العواقب الإستراتيجية لخضات "الربيع العربي"، وكذا الدعم الأمريكي الملتبس

لمسلحي سوريا "المعتدلين". ومهما يحصل في سوريا من الآن فصاعداً، فإن دور الولايات المتّحدة قد تهمّش

بشكل تدريجي. ويرى فالوري إشارات "بداية جديدة" لعلاقات روسية – إسرائيلية متنوّعة. ذلك أن إقدام روسيا

على الإستجابة لطلب إسرائيلي بإستعادة دبابة إسرائيلية من طراز "أم ٤٨ باتون" سيطر عليها السوريون

خلال الحرب اللبنانية سنة ١٩٨٢، يبدو أنه كافٍ كمؤشر في هذا الإتجاه. ومن الواضح أنّ الرئيس فلاديمير

بوتين قد أعلم الرئيس بشار الأسد مسبقاً بقراره. يضاف إلى ذلك تسامح الروس مع تحليق إسرائيلي فوق

هضبة الجولان باتجاه العمق السوري كما تسامح الدولة العبرية مع بعض الطائرات الروسية التي حلّقت فوق

الأراضي التي تسيطر عليها.

ويرى الكاتب أنه من الواضح أن المفاوضات بين روسيا وإسرائيل تتكون من ثلاثة عوامل متشابكة بشكل

وثيق: تريد إسرائيل من الإتحاد الروسي أن يتصرّف باعتباره وسيطاً وصانع قرار يحظى بمصداقية بين

إسرائيل والفلسطينيين، لأنه موثوق من كلا الجانبين. ويرفض الكيان العبري تحويل تكنولوجيا عسكرية أو معلومات أو خدمات لوجستية من روسيا إلى حلفائها في سوريا. ولا يستبعد الكاتب أن يتمكن المحور الروسي الإسرائيلي من إعادة رسم الشرق الأوسط، إذ يرى أن القوى الرئيسة في المنطقة لا أب لها ولا أم، حالياً، واستبدال القوى العظمى بإيران والمملكة السعودية لن يستمر طويلاً لأنها أصغر من أن تكون قادرة على تشكيل الإرتباطات الإستراتيجية بعيدة المدى. وبالتالي، كما كتب، فإن الوقت قد حان لمنطقة الشرق الأوسط لتستند إلى قوة عالمية، والمحور الروسي الصيني الإسرائيلي، يمثل ثقلاً إقليمياً واضحاً.

وتتناول المفاوضات الروسية الإسرائيلية، أيضاً، ضماناً روسياً لإسرائيل من أي عمليات عسكرية إيرانية محتملة، وتهميش "حزب الله" اللبناني، وولاية جديدة للأسد لا تهدف إلى تدمير "الكيان الصهيوني"، أو تقسيم سوريا إلى ثلاثة أجزاء مع تهدئة فصائلها الداخلية. ويقول الكاتب إن هذا هو خط الولايات المتحدة، كما إنه أيضا، وإن جزئياً، خط بعض صناع القرار في إسرائيل.

أما عرض بوتين للكيان العبري، فيبدو ، بحسب رأي الكاتب، على النحو الآتي: إذا قبلت إسرائيل بـ"سوريا كبرى"، ستبقى القوات الروسية في المنطقة الغربية من البلد لتحمي إسرائيل ضدّ أي عمل من إيران أو سوريا. لهذا السبب تريد روسيا إعادة فتح علاقات سياسية بين الأسد وإسرائيل، لإبعاد الحكومة البعثية عن الخط الجيوسياسي لإيران وحزب الله.

ومع ذلك، يقول الكاتب، هناك ما هو أكثر في مشروع الشرق الأوسط الروسي الجديد وفي الرد الإسرائيلي

على صعود القوة الروسية في المنطقة، فخلال زيارة نتانياهو إلى روسيا في ٢١ نيسان ٢٠١٦، مثلاً، أشار

رئيس الحكومة الإسرائيلية والرئيس الروسي إلى مصلحة روسيا في تطوير واستثمار حقل الغاز الجديد

والطبيعي المعروف باسم لفياتان، الأمر الذي سيكون تغييراً حقيقياً في قواعد اللعبة في الشرق الأوسط. وإذا

شاركت "غازبروم" الروسية في التنقيب والتسويق لحقل الغاز الخارجي بين حيفا وقطاع غزّة، سيكون هذا أمراً

مهماً بالنسبة للعلاقات الروسية الإسرائيلة . لذا، فإن الزيارات الثلاث لنتنياهو إلى روسيا خلال أكثر من سنة

ضرورية بالنسبة للسياسة الخارجية الإسرائيلية وكذا لمستقبلها الإقتصادي.

وإلى جانب هذا، يعلم الكيان العبري أنّ إدارة أوباما تعتقد أنّ بعض الأراضي التي احتلها عام ١٩٦٧ قد ضُمَ

بطريقة غير مشروعة، وأن هذا الواقع قد يقرّب روسيا وإسرائيل إلى بعضهما بشكل أكبر. فعلى روسيا أن

تحافظ على وجودها في أوكرانيا وتدافع عن ضمّها للقرم على مستوى دولي. وإذا دعمت إسرائيل المطالب

الروسية في القرم، فمن المحتمل جداً لروسيا أن تناور على "حق" إسرائيل في الإحتفاظ بالأراضي الفلسطينية.

ومع الأخذ بالإعتبار جميع هذه الشروط، في أفضل سيناريو ممكن، يمكن لإسرائيل استبدال أميركا، على

المدى الطويل، بالإتحاد الروسي حليفاً دولياً ومرجعية في منطقة الشرق الأوسط، هذا ناهيك عن أنه في

المستقبل، سيكون ثمة مكان لإسرائيل في الحزام الصيني .

تعقيدات العلاقات المشتركة:

لقد أخفقت تل أبيب في أن تثني روسيا عن دعم حكومة دمشق وحزب الله في سوريا، وأخفقت في انتزاع تصريح روسي بإسرائيلية الجولان. كما فشلت أيضًا في تعطيل غرفة العمليات المشتركة بين روسيا وإيران وسوريا والعراق التي تمت في إيران وعقدت بعد يوم واحد من زيارة نتنياهو لموسكو.

كذلك كشفت الأزمة التي أثارتها الصواريخ الروسية المتطورة من نوع S300 لطهران مدى تعقيد العلاقات التي تربط إسرائيل وروسيا. فعلى رغم القلق الشديد الذي أثاره الإعلان الروسي عن الإفراج عن شحنة الصواريخ واعتبار إسرائيل نفسها المستهدفة الأساسية بهذا السلاح المتطور حتى لو كان دفاعياً، فإن مسؤوليها لم يتجرأوا على توجيه إنتقادات حادة الى روسيا خوفاً من تعريض شبكة العلاقات الخاصة التي تربط البلدين للخطر.

وهناك أكثر من سبب وراء هذا الحذر الإسرائيلي غير المألوف، لذلك حرص بنيامين نتنياهو على عدم تعكير علاقاته مع حكومة فلاديمير بوتين، وأن يضيف ذلك إلى سجل إخفاقاته الخارجية وخصوصاً في ضوء تدهور العلاقة مع إدارة الرئيس باراك أوباما. وهناك أيضاً اقتناع المسؤولين الإسرائيليين بان الخطوة الروسية ليست موجهة ضدهم بقدر ما هي رسالة موجهة إلى الغرب وإلى الولايات المتحدة الأميركية بصورة خاصة على خلفية الأزمة الأوكرانية والعقوبات التي فرضت على روسيا عقب ضمها شبه جزيرة القرم. ومن المعروف أن إسرائيل التزمت منذ بداية الأزمة الأوكرانية سياسة الوقوف في الظل وعدم التدخل المكشوف في النزاع حفاظاً على علاقاتها الحسنة مع روسيا، وهي لا تريد اليوم أن توتر هذه العلاقات. والأهم من كل هذا، التقدير الإسرائيلي بأن الخطوة الروسية تدخل في إطار الصراع على النفوذ في الشرق الأوسط مع الولايات المتحدة تحديداً، ورغبة روسيا في التحول إلى لاعب أساسي من خلال تقربها من جميع دول المنطقة من دون إستثناء وليس من إيران تحديداً.

إن تقدم روسيا إلى سوق الأسلحة الشرق أوسطي يبقى عاملاً يثير حفيظة الإسرائيليين، بسبب تسليح سوريا وإيران. ثم إن تضمين هذا الموضوع «ذكريات» عن أزمنة « الحرب الباردة»، حين حاربت الجيوش العربية إسرائيل بالسلاح السوفياتي سواء في عام ١٩٦٧، أم في العام ١٩٧٣ أم في السنوات اللاحقة، يجعله «مؤلماً» للغاية. كما تؤكد وقائع الماضي القريب على صحة مخاوف إسرائيل من أن الأسلحة الروسية ستكون موجَّهةً ضدها. ففي أثناء الحرب اللبنانية الثانية العام ٢٠٠٦ ، استخدم مقاتلو «حزب الله» صواريخ «كورنيت» المضادة للدبابات، التي كانت قد قامت روسيا بتوريدها إلى سوريا.

إن بعض الساسة الإسرائيليين، وفي مقدمتهم، منحدرون من الإتحاد السوفياتي السابق، يرون إمكانية تخفيض المخاطر المتصلة بتقوية سوريا وإيران عبر شرائهما المعدات الحربية الروسية من خلال توسيع التعاون العسكري الإسرائيلي – الروسي. وتعليقاً على توقيع الإتفاقية الروسية – الإسرائيلية بشأن التعاون العسكري – التقني، صرح زئيف إيلكين، عضو الكنيست وأحد رئيسي الإتحاد البرلماني المشترك «إسرائيل – روسيا»، بأن إسرائيل تسعى لجذب إهتمام روسيا بطرح مشاريع تجربة مشتركة كي تأخذ القيادة الروسية ورجال الأعمال الروس بعين الإعتبار مصالح إسرائيل بمزيد من الجدية. بيد أن غياب الثقة بروسيا (بشكل تقليدي) بوصفها لاعباً في حلبة الشرق الأوسط مناهضاً ليس لإسرائيل وحدها، بل وللغرب، يدفع الإسرائيليين إلى التشكيك في آفاق الشراكة معها. فإن روسيا يُشتبه فيها بالعزم على إستعادة مواقعها المفقودة في الشرق الأوسط جراء إنهيار الإتحاد السوفياتي، وذلك بواسطة توحيد كتلة بلدان مناهضة للغرب بحكم طبيعتها. فإن جريدة «جيروزاليم بوست» التي أوردت كل التعاقدات الروسية الأخيرة المبرمة مع سوريا وإيران بشأن إمدادات بعض أنواع الاسلحة، مشيرة إلى احتمال وقوع هذه الأسلحة بأيدي التجمعات الإسلامية الراديكالية التي تحارب إسرائيل (مثل «حزب الله»، و«حماس»)، تتوصل إلى إستنتاج محدد، مفاده أن «روسيا لا يمكن اعتبارها في الوقت الحاضر شريكاً أميناً فيما يتعلق بمهام السياسة الخارجية والإعتبارات الأمنية».

إن بيع الأسلحة إلى البلدان العربية يُعتبر بالنسبة لروسيا صفقة تجارية محضة. فإن ذلك ما تقوم به الولايات المتحدة وغيرها من البلدان الغربية التي تبيع المعدات الحربية والأسلحة بمبالغ تُقدر بملايين من الدولارات إلى الدول المعروفة بخصومتها لإسرائيل. إن مثل هذا التعاون لا يتنافى والقانون الدولي، لا سيما أن الطرف الروسي يسعى جاهداً لتحقيق أقصى حد من الشفافية لصفقاته مع الشركاء الإقليميين، حيث تُضمِّن روسيا هذه الصفقات تعهدات يأخذها على عاتقه «المنتفع النهائي»، بعدم تسليم الأسلحة المورَّدة إلى أطراف ثالثة. ومن جهة أخرى فإن متابعة تنفيذ هذه الشروط والتعهدات أمر في غاية الصعوبة، إنْ لم يكن مستحيلاً، في ظل النزاعات التي تسود الشرق الأوسط، والنشاطات العصية على أي مراقبة التي يقوم بها لاعبون إقليميون، مثل حزب الله وحماس. ومع ذلك تقدِّم موسكو في بعض الحالات تنازلات متراجعةً عن مصالحها التجارية. ففي أيلول العام ٢٠١٠ وقع الرئيس ديمتري ميدفيديف مرسوماً يقضي بحظر بيع صواريخ «إس–٣٠٠» إلى إيران، بسبب العقوبات المفروضة في مجلس الأمن الدولي على طهران. وتعتبر هذه الصواريخ

إحدى أكثر منظومات الدفاع الصاروخي فعاليةً في العالم. وكان يمكن لإمتلاكها أن يجعل إيران أقلَّ تعرُّضاً لخطر ضربة عسكرية أميركية أو إسرائيلية.

من ناحية أخرى لم تتراجع روسيا عن عزمها على تعزيز دورها في تسوية النزاع العربي – الإسرائيلي. فمن منظور مصالح روسيا الوطنية، تتصدر إقامة السلام قائمة المهام ذات الأولوية، وتكتسب العلاقات الجيدة المبنية على الثقة مع إسرائيل، أهميةً خاصة في هذا السياق. ومع ذلك لا يمكن أن نتناسى أن الحكومات الإسرائيلية الحالية، تمارس بشكل، لم يسبق له مثيل خلال السنوات العشرين الاخيرة، التعنتَ والعناد والمكابرة، رافضةً أي حل وسط مع الطرف الفلسطيني.

لقد شهدت العلاقات الروسية–الإسرائيلية في أعقاب تسلم الرئيس الروسي الأسبق بوريس يلتسين مقاليد الحكم في روسيا، مرحلة وئام وسنوات عسل لم يسبق لها مثيل قط. وقد تمثل ذلك في التسهيلات الكبيرة التي حظي بها الرأسماليون اليهود في موسكو واحتلال بعضهم مواقع مؤثرة في الكرملين، وعلى صعيد امتلاكهم وسائل إعلامية خاصة، وصولاً إلى تدبير وتنظيم أكبر هجرة لمواطنين روس يهود إلى فلسطين المحتلة بعد الهجرة الأولى التي أعقبت إحتلال فلسطين وإعلان "دولة إسرائيل" عام ٤٨ حيث تجاوز عدد المهاجرين المليون مواطن روسي.

لكن أزمة العلاقات بدأت تظهر شيئاً فشيئاً مع تسلم الرئيس فلاديمير بوتين السلطة، حيث عمد إلى تصفية نفوذ اللوبي الصهيوني وتطهير الكرملين من الرموز الصهيونية التي كانت قد أدت دوراً مؤثراً في الوقوف وراء الكثير من السياسات التي انتهجها يلتسين في خدمة السياسة الإسرائيلية واستطراداً الأميركية، وأدت إلى إضعاف مكانة روسيا كدولة عظمى وحولتها إلى مجرد دولة تابعة للسياسات الأميركية والإسرائيلية وبالتالي إلى تراجع دورها التاريخي في منطقة الشرق الأوسط بشكل خاص.

والجدير بالذكر أن السياسة الإسرائيلية التي حاولت أن تملي على روسيا نوعية علاقاتها الدولية ومنعها من بيع الأسلحة إلى من تريد من الدول خدمة للمصلحة الإسرائيلية أولاً وأخيراً، لم تعد مقبولة من قبل روسيا– بوتين بعد أن جربت موسكو طوال سنوات أعقبت إنهيار الإتحاد السوفييتي السابق خيار تطويع علاقاتها وصداقاتها لصالح التقرب من أميركا وإسرائيل والغرب عموماً، وكانت النتيجة مدمرة لها، وألحقت ضرراً كبيراً بمصالحها وأمنها القومي وإقتصادها الذي تدهور إلى مستويات كبيرة (تهريب مليارات الدولارات إلى الخارج، تدني مستويات المعيشة، ازدياد الديون الخارجية، اختلال حاد في الميزان التجاري...الخ).

هكذا إنطلقت سياسة بوتين الجديدة للرد أيضاً على السياسات الأميركية–الإسرائيلية المشتركة، الهادفة إلى تطويق روسيا وتهديد أمنها القومي عبر تغذية ودعم القوى المعارضة لها في جمهوريات آسيا الوسطى، الأمر الذي بلغ حداً إستفزازياً متمادياً عندما اكتشفت موسكو وجود دعم صهيوني للمعارضة الأوكرانية مما دفع بوتين إلى التحذير علناً من الدور الصهيوني المعادي لروسيا في أوكرانيا التي تشكل بالنسبة لها مجالاً حيوياً لأمنها القومي، خاصةً وأن أوكرانيا تمثل أخطر بوابة جيوسياسية يمكن أن تفقدها روسيا في الشرق الأوروبي بعد أن خسرت النافذة الحيوية على بحر البلطيق بانضمام استونيا ولاتفيا وليتوانيا إلى حلف شمال الأطلسي، بل إن الخسائر ستصل إلى تهديد الأسطول الروسي في مياه البحر الأسود الأوكرانية، وهذا ما دفع روسيا إلى اعتبار أن الغرب يحول أوكرانيا إلى (ساحة معركة تستحضر الحرب الباردة).

كذلك كانت إسرائيل حليفًا لجورجيا قبل وأثناءَ حربها مع روسيا، وأمدتْها بالأسلحة المتنوِّعة، بدءًا من الأَلْغام ومضادات الألغام الأرضية، وحتى الطائرات من دون طيَّار المعروفة باسم "هيرمس"، كما قامتْ بتدريب بعض القوات الجورجية لاسيما القوات الخاصة. وشكل ذلك سببًا مباشرًا لتدهور العَلاقات بين روسيا و"إسرائيل"، ووصل الأمرُ إلى درجة تهديد القادة الروس في حينه، وعلى رأسِهم الرئيس ميدفيديف، ورئيس وزرائه آنذاك بوتين، ورئيس الأركان المشتركة نيكولاي ماكاروف. وهددت روسيا "إسرائيل" بأنَّها إذا لم تُوقفِ شحناتِ الأسلحة إلى جورجيا، فإنَّ موسكو ستقومُ بإمداد جيران "إسرائيل"، خاصَّة سورية وإيران، بنُظم تسليح هجوميَّة.

وقد حاولت سورية استثمارَ هذه الفرصة، فقام الرئيس بشَّار الأسد بزيارة إلى موسكو بعد بضعة أيَّام من انتهاء الحرْب الجورجية، وتحديدًا في ٢٠ آب ٢٠٠٨، ناقش خلالَها مع نظيره الروسي مسألةَ بيْع سورية نظم أسلحة متطوِّرة، وثارتْ تكهُّنات خلال هذه الزيارة بأنَّ رئيس الوزراء فلاديمير بوتين، الذي يُسيطِر على عمليات بيع وشراء الأسلحة الروسية سيوافق على بيْع سورية صواريخ إسكندر– إي الطويلة المدى، الأمر الذي أفْزَع "إسرائيل".

ثم زار رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت موسكو في تشرين ألاول ٢٠٠٨، بعد أن قَدَّم لزيارته ببادرة رمزيَّة للروس، وهي الموافقةُ على إستعادة روسيا موقعاً أثرياً أنشأه القيصرُ الروسي إلكسندر الثالث في العام ١٨٨٨ في وسط القدس، بجوار الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. وأخبر أولمرت نظراءَه الروس بأنَّ بلاده أوقفتْ شحناتِ الأسلحة، بما في ذلك الطائرات بدون طيار، وغيره من أشكال الدَّعْم العسكري لجورجيا، وأنَّها لن توقِّع أي إتفاقات جديدة في هذا الشأن، وطالَب الروس بعدم تزويد كلٍّ من سورية وإيران بأنظمة صواريخ متطوِّرة، ولا سيَّما إس ٣٠٠، أو إسكندر.

وبدأتْ مفاوضات بين البلدَين لشراء روسيا عدداً من الطائرات الإسرائيلية بدون طيار، والتي أثبتت، وفقاً للقادة العسكريّين الروس، نجاعتَها وفعاليتها في حرْب جورجيا، فيما يتعلَّق بجميع المعلومات الإستخبارية، مقارنةً بنظيراتها الروسية قديمة الطراز. ومن ثم أبرم الطرفان إتفاقاً في هذا الخصوص، يقضي بتزويد روسيا وقواعدها الأرضية بعددٍ من هذه الطائرات، وأصرَّت "إسرائيل" بالمقابل على تزويد جورجيا بالأسلحة؛ بحجَّة أن ذلك يمثل تنفيذاً لإتفاقات سابقة، ولم تُقدِّم روسيا أي ضمانات بشأن صفقة صواريخ إس ٣٠٠، التي اتَّفق عليها الطرفانِ الروسي والإيراني، ولم تكن نفذت بعد.

ثم جاء التطوُّر الأهم في العلاقات الإسرائيلية – الروسية مع زِيارة الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريس إلى موسكو في شهر آب ٢٠٠٩، والتي تزامنتْ بدورها مع الحديث عن قُرْب إنعقاد مؤتمر دولي للسلام في الشَّرْق الأوسط في موسكو، وعن مبادرة أمريكيَّة جديدة للتسوية السلمية للصِّراع العربي – الإسرائيلي. وقد أعلن بيريس أنَّ الرئيس ميدفيديف وعَدَه بإعادة النظر في صفقة الصواريخ الروسيَّة إس ٣٠٠ إلى إيران، لأنَّها قد تؤثِّر في التوازن الدقيق القائم في الشرق الأوسط، وربط بيريس بين ذلك ومسألة الدِّرْع الصاروخية التي تتبنى إدارة أوباما إقامتها في بولندا وتشيكيا، والتي تَعتبرها روسيا تهديداً لأمنِها القومي؛ لأنَّها قد تسلبها قوَّة الردْع المتمثلة في القدرة على توجيه الضَّرْبة الثانية في حال تعرُّضها لهجوم أمريكي، وتمثِّل محاولةً لإحتواء قوتها داخل إقليمها، ومنْع نفوذها من التمدُّد في أوروبا الشرقية.

كما أسفرتْ هذه الزيارة عن توقيع إتِّفاق بين الطرفَين لتحديث أنظمة الري الروسية، بقيمة ٥٠٠ مليون دولار، وتعهدت "إسرائيل" بموجبه بتوفير التكنولوجيا المتقدِّمة التي طورتها الشركات الإسرائيلية في مجالي الماء والزِّراعة، كما ناقش الطرفان أيضاً آفاقَ ومجالات التعاون في مجال البحث العِلمي بين الشركات الروسية ونظيراتها الإسرائيلية.

بشكل مختصر يمكن القول إن سياسة بوتين الحالية تسعى في آخر المطاف لتحقيق هدفين أساسيين:

الأول: عودة روسيا لإحتلال موقعها في الحلبة الدولية كقطب دولي مهم بين الأقطاب الكبار، مع إدراك أن مثل هذه العودة لا يمكن أن تتم إلا من خلال توطيد علاقاتها مع الدول الصديقة والتي تقف في مواجهة المشروع الأميركي الإسرائيلي للهيمنة على المنطقة تمهيداً لفرض السيطرة الأحادية الأميركية على العالم كله.

الثاني: وضع حد للتدهور الحاصل في الإقتصاد الروسي عبر بيع الأسلحة إلى سورية وإيران، اللتين لهما مصلحة كبيرة في ذلك لمواجهة التهديدات المباشرة التي تتعرضان لها من قبل أميركا وإسرائيل.

من ناحية أخرى، إذا كانت سياسة بوتين الجديدة القائمة على العمل لإستعادة مكانة روسيا الدولية قد بدأت بضرب مراكز النفوذ الصهيوني في بلاده، فإن تتمتها استدعت إحياء علاقات روسيا وصداقاتها في

المنطقة وخصوصاً مع إيران وسورية . والذي شغل بال إسرائيل ليس مجرد تحسن مثل هذه العلاقات فقط، بل قيام موسكو بتزويد دمشق وطهران بأسلحة نوعية جديدة تساعدهما على حماية أراضيهما ومصالحهما بوجه التهديدات الإسرائيلية المستمرة، ما قد يؤدي إلى الحد من الإختلال الكبير في التوازن العسكري في المنطقة الذي يميل دائما لصالح إسرائيل بفعل الدعم الأميركي غير المحدود .

للمفارقة أيضاً يمكن فهم التعاون العسكري الذي قامت به روسيا مع حزب الله للإستفادة من عقيدته القتالية كمجموعة مسلحة بالأساس بوجه المعارضة السورية، وهي نقطة الخلاف الرئيسية التي لا تزال تؤرق العلاقة الروسية – الإسرائيلية، مُضافةً بالطبع للعلاقات القوية بين روسيا وإيران، والتي تشمل صفقات عسكرية ضخمة أبرزها تزويد إيران بنظام الدفاع الصاروخي S300 الذي ضغطت إسرائيل طويلًا لمنع وصوله إلى طهران. وبالنظر لعدم وجود رغبة غربية للتراجع عن الإنفتاح على إيران، فإن امتلاك علاقات قوية بروسيا حالياً يصبح الحل الوحيد أمام إسرائيل لامتلاك نافذة في موسكو تتيح لها الضغط مستقبلاً لتحجيم الدور الإيراني، لا سيما وأن الخلافات التاريخية بين موسكو وطهران يرجّح أن تنشب في أي وقت وبالأخص مع ظهور إيران كمصدّر للغاز ينافس روسيا.

نيقولاي سوركوف، الأستاذ المساعد في قسم الإستشراق في معهد موسكو للعلاقات الدولية التابع لوزارة الخارجية الروسية، شرح الإشكالية المفترضة في العلاقات الروسية – الإسرائيلية بالقول إنه مهما تبدو العلاقات غريبة بين روسيا وإسرائيل، فقد تمكن الرئيس فلاديمير بوتين من إقامة تعاون رابح مع تل أبيب. معلوم أن هذه العلاقات الوثيقة تبدو لبعضهم غريبة، بل وغير طبيعية. ذلك أن موسكو على علاقات صداقة مع عدوي تل أبيب، سورية وإيران، وتبيعهما الأسلحة. ولفترة طويلة، كانت على علاقات صداقة مع نظام صدام حسين. كما أن الشركات الروسية تقوم بتحديث أسلحة الجيش المصري، وتؤسس لإنتاج راجمات قنابل في الأردن، غير أن ذلك كله لم يحل دون تطوير موسكو علاقاتها مع تل أبيب إلى أحسن حال.

وقد أعلن الرئيس بوتين أن "تطوير العلاقات البناءة والمتبادلة المنفعة مع إسرائيل في المجالات السياسية والإقتصادية والتقنية والإنسانية وغيرها كانت، وستبقى، أولوية السياسة الخارجية الروسية". ويوضح سوركوف أن هناك سبباً وجيهاً لهذه الثنائية في السياسة الخارجية الروسية. فمن جهة، موسكو مهتمة بتعزيز مواقعها في العالم العربي، وزيادة صادراتها، والمشاركة في إنجاز المشاريع الكبرى هناك. ومن جهة أخرى، يدركون، في الكرملين، أن إسرائيل لاعبٌ مؤثر في المنطقة، ومقدراتها العسكرية والإقتصادية كبيرة.

ومن بين الإتجاهات الرئيسة للتعاون الروسي – الإسرائيلي يمكن ذكر الأبحاث الفضائية، المواصلات، التكنولوجيات المعلوماتية، الإتصالات، التكنولوجيات الزراعية والصناعية، قطاع الأعمال الخاصة بالماس

ومعالجة الماس والمعادن ضمناً. والجدير بالذكر أن نسبة ٤٥-٥٥% من إجمالي التصدير الإسرائيلي تعود إلى قِطع ألماس غير معالجة.

ويشغل النفط ومشتقاته مكانة هامة في التعاون بمجال الطاقة (نسبة ٣٠-٤٠% من إجمالي التصدير الروسي إلى إسرائيل). ومن أكثر المشاريع المستقبلية قد يكون مشروع توريد الغاز الطبيعي الروسي إلى إسرائيل. وتجري مباحثات بهذا الشأن بين شركة "غازبروم" الروسية والجانب الإسرائيلي. والأهم من هذا كله أن لتل أبيب نفوذاً لدى واشنطن. وقد سبق للولايات المتحدة الأميركية أن فرضت عقوبات إقتصادية مؤلمة على الإتحاد السوفييتي، بسبب عرقلة القيادة السوفييتية، آنذاك، هجرة ملايين اليهود إلى إسرائيل.

إلا أننا يجب أن لا ننسى أن الإتحاد السوفييتي نفسه كان من أوائل الدول التي اعترفت بإسرائيل سنة ١٩٤٨. علماً بأن اليهود السوفييت، أصحاب الخبرة القتالية، قاتلوا حينها في صفوف الجيش الإسرائيلي. وفي عام ١٩٦٧، بعد حرب الأيام الستة، تم قطع العلاقات السوفييتية مع إسرائيل، وبقيت مقطوعة حتى استعادتها في عام ١٩٩١. ومنذ ذلك الحين، عاشت العلاقات فترات دفء، كما عانت أيام جمود. ومثالاً على الأخيرة، يمكن تذكر نهاية عقد التسعينيات، حين شغل يفغيني بريماكوف، المتعاطف مع العرب نسبياً، منصب وزير خارجية روسيا، إلا أن التقارب الحقيقي بين البلدين لم يتم إلا في عهد الرئيس فلاديمير بوتين الذي زار متحف الهولوكوست في إسرائيل، وافتتح المتحف اليهودي ومركز التسامح في موسكو. ومعلوم أن حوالي مليوناً من السوفييت السابقين يعيشون في إسرائيل، وعلى الرغم من أن أحداً لا يقول إنهم وطنيون روس، إلا أنهم، مع ذلك، يحافظون على العلاقات الثقافية والعملية مع وطنهم السابق.

من الأمثلة القريبة على تعاطف القيادة الروسية مع إسرائيل، ردة فعل بوتين على مقتل الفتيان الإسرائيليين الثلاثة. حينها قال: "أساند كفاح إسرائيل حين تحاول حماية مواطنيها. سمعت عن عملية قتل الفتيان الثلاثة المروعة. هذا عمل لا يجوز السماح به، وأرجوكم نقل تعازيّ الخاصة لأسرهم". صرح بوتين بذلك في أثناء لقائه في موسكو حاخامات إسرائيليين. ومما يلفت النظر، أيضاً، التقارب الشديد في المجال الإقتصادي بين موسكو وتل أبيب. فوفقاً لكلام نائب رئيس الوزراء الروسي، أندريه دفوركوفيتش، يبلغ حجم التبادل التجاري بينهما اليوم ثلاثة مليارات دولار، وتأمل موسكو رفعه إلى ٣,٥ مليارات دولار. علماً أن التبادل التجاري مع أيٍّ من البلدان العربية لم يبلغ هذا المستوى.

كما تُناقش، اليوم، الخطوات اللازمة لإقامة منطقة تجارة حرة، معفاة من الجمارك بين البلدين، فإسرائيل بالنسبة لروسيا بلد يستورد المواد الخام ومصادر الطاقة، ويورّد منتجات تكنولوجية متطورة، وتقنيات مهمة خاصةً في مجال الزراعة والإلكترونيات، وهي كذلك مكان واعد للإستثمار. ومما يذكر، هنا، العقود البالغة

قيمتها ٤٠٠ مليون دولار لتزويد روسيا بطائرات من دون طيار، الجيش الروسي بأمس الحاجة إليها. و"في حال تشديد العقوبات على روسيا فيمكن لإسرائيل أن تشكل بالنسبة لموسكو نافذة على الغرب" في المجال السياسي، هناك أيضاً تفاهم متبادل.

من ناحية أخرى، على الرغم من أن روسيا تزوّد البلدان العربية بالأسلحة، فهي لا تمدها إطلاقاً بالمنظومات التي يمكن أن تغير موازين القوى في المنطقة. فما أن يبدأ الحديث عن تزويد سورية بوسائط دفاع جوي متطورة، حتى يطير رئيس الوزراء الإسرائيلي، بنيامين نتنياهو، إلى موسكو للتشاور مع القيادة الروسية. ولذلك، لم يكن مصادفةً تخلي روسيا أكثر من مرة عن تزويد إيران وسورية بمنظومة صواريخ S 300، كان يمكن أن تعيق جدياً عمل سلاح الطيران الإسرائيلي، في حال نشوب حرب معهما. وبالنتيجة، لم يحصل الإيرانيون في حينه سوى على صواريخ قصيرة المدى (تور)، والسوريون على (ستريليتس) التي لا تختلف إلا قليلاً عن الصواريخ المحمولة على الكتف المضادة للطائرات.

الأمر الأكثر بساطةً وإقناعاً لتفسير مثل هذه السياسة التي تنتهجها روسيا، هو براغماتية بوتين في سياسته الخارجية، فهو يعقد الصداقات حيث تكون المنفعة. وروسيا ترى في إسرائيل شريكاً إقتصادياً وسياسياً مهماً، بل أكثر أهمية بكثير من البلدان العربية. علماً أن أهمية إسرائيل عند روسيا تضاعفت بعد الأزمة الأوكرانية. ففي أثناء هذه الأزمة، امتنعت إسرائيل بعناد عن توجيه أي نقد لروسيا، وقدرت موسكو ذلك. إضافةً إلى ذلك، في حال تشديد العقوبات على روسيا يمكن لإسرائيل أن تشكل بالنسبة إلى موسكو نافذة على الغرب. صحيح أن إسرائيل اضطرت إلى تجميد تعاونها العسكري – التقني مع روسيا، إلا أن جميع العقود في هذا المجال اكتمل تنفيذها. وهناك قطاعات أخرى مهمة غير السلاح.

ما سبق، لا ينبغي أن يقود إلى التفكير بأن علاقات موسكو مع تل أبيب سمن على عسل طوال الوقت. فمثلاً، في العام ٢٠٠٨، انزعجت روسيا من تزويد إسرائيل نظام ميخائيل ساكاشفيلي المعادي لروسيا بطائرات من دون طيار، ساعدته في توجيه الرمايات ضد الأهداف الروسية، في أثناء النزاع في أوسيتيا الجنوبية، إلا أن موسكو سرعان ما وجدت طريقة لوضع النقاط على الحروف مع شريكها الإسرائيلي. فقد نشّطت في الحال المباحثات مع طهران لتزويدها بمنظومة S٣٠٠، وتزويد سورية بصواريخ "ياخونت" المضادة للقطع البحرية. الأمر الذي جعل نتنياهو يطير، بصورة عاجلة إلى موسكو، ليحل سوء الفهم في أسرع وقت.

الوضع الحالي للعلاقات الروسية – الإسرائيلية، وصفه رئيس لجنة العلاقات الدولية في مجلس الفيدرالية الروسي، السيناتور ميخائيل مارغيلوف بأنه جيد، وهو زار تل أبيب مع برلمانيين روس، في ذروة العملية الإسرائيلية ضد قطاع غزة، فقال: "نتخلص من كل سوء فهم في أثناء المناقشات. نتحدث بالتفصيل مع

شركائنا (الإسرائيليين)عن مناهجنا ومواقفنا. وحتى حين لا نوافق، وحين لا تتوافق وجهات نظرنا، فإننا لا ننزلق، في أي حال، إلى خطابٍ عدائي".

إلى جانب ذلك أوضح وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف لصحيفة "برافدا" سياسة روسيا الشرق أوسطية بقوله: "إن السياسة الروسية ليست موالية للعرب أو لإسرائيل، بل تهدف إلى ضمان المصالح الروسية القومية، والحفاظ على علاقات جيدة مع الدول العربية ومع إسرائيل بذات القدر. وأعلن الرئيس بوتين أن تطوير العلاقات البناءة والمتبادلة المنفعة مع إسرائيل في المجالات السياسية والإقتصادية والإنسانية وغيرها كانت، وستبقى، أولوية السياسة الخارجية الروسية". وواضح أن هذا القول يعكس منطق المذهب البراغماتي لروسيا الجديدة وحساباتها الإقتصادية، وجوهر هذه الحسابات أن منطقة الشرق الأوسط ليست في أولوية الإهتمام رغم أنها تمثل موقعاً إستراتيجياً للنفوذ الروسي.

وفي هذا السياق، ترى بعض النخب الروسية أن الشرق الأوسط لا يدخل ضمن أولويات الإتحاد الروسي الملحة الآن، والسبب هو المشاكل الداخلية الكثيرة التي تحتاج إلى "حلول سريعة" كما أن "المهمة الرئيسة الآن هي إقامة أو إستعادة العلاقات بين روسيا وجمهوريات الإتحاد السوفياتي السابق". ويضيف هؤلاء أنه لا توجد "سياسة روسية واضحة في المنطقة. فالكرملين لا يملك إستراتيجية أو أفكاراً جديدة، وموسكو فقدت نفوذها في المنطقة حتى قبل انهيار الإتحاد السوفياتي، مما يعني أن استعادته ليست بالأمر السهل". والأهم من كل ذلك أن "روسيا لا تملك القوة الكافية لتلبية توقعات الكثير من الناس في العالم العربي، والشيء الوحيد الذي يمكنها فعله هو أن تقول أن دورها لا يزال مهماً في الشرق الأوسط، حتى لا ينساها العرب". وفي هذا السياق تدفع التحركات الروسية الأخيرة في الشرق الأوسط إلى تساؤلات عديدة من قبيل: هل تتمكن روسيا مجدداً من إختراق منطقة الشرق الأوسط؟ وهل يمكنها أن تؤدي دوراً مهماً وحاسماً في حل الأزمات التي تموج بها المنطقة وأن تساهم بشكل جدي في عملية التسوية السياسية للصراع بين العرب وإسرائيل؟

في محاولة للإجابة عن هذه التساؤلات تجدر الإشارة إلى رأيين: الأول يتعلق بالحديث المتواتر عن أن "النظام الدولي الجديد" قد ولد في أعقاب التطورات التي لحقت بالإتحاد السوفياتي السابق، وأن أهم سمات هذا النظام إنفراد الولايات المتحدة بالهيمنة على النظام الدولي، في حين ينكر الرأي الثاني وجود مثل هذا النظام ويراه مجرد إمتداد لنظام القطبية "الثنائية" بصورة أخرى. وبالتالي فالمرحلة الراهنة هي مرحلة إنتقالية وشكل العلاقات الدولية مستقبلاً لن يتحدد قبل فترة من الزمن.

أما فيما يتعلق بالموقف الروسي الداعم لنظام الرئيس الأسد في سوريا، فالواقع أن هذا يعود إلى أسباب عدّة ودوافع مختلفة، لا تبدأ من خشية موسكو من أن تفقد موطئ القدم الوحيد لها في المنطقة، وهو قاعدة

طرطوس المطلة على البحرالمتوسط، وهي المنطقة التي تسيطر عليها الولايات المتحدة نفوذاً وقواعد عسكرية. كما لا تتوقّف عند إمدادات الغاز الطبيعي من سوريا إلى أوروبا، ولا تنتهي عند رفض موسكو الدائم للموقف الأميركي الداعم لنموّ المجموعات والمنظمات السلفية المتطرّفة في المنطقة، أو التي قد تمتدّ مخاطر نشاطاتها وممارستها إلى الأراضي الروسية ومواقع نفوذها في آسيا الوسطى.

ويخضع موقف روسيا بشأن سورية إلى مفهومها الخاص للنظام العالمي، والذي يدعو إلى ضبط إستخدام القوة من جانب مجلس الأمن الدولي، ورفض تغيير الأنظمة من الخارج. وترى موسكو أن الربيع العربي ثورة إسلامية من المرجّح أن يهيمن عليها المتطرفون. وهي تخشى من أن يصبح الصراع السوري أكثر تطرّفاً وينتشر أكثر. لذلك يتعيّن على الغرب تبنّي التعاون مع روسيا على أساس المصالح المشتركة. ففي سورية لايرغب الأميركيون ولا الروس، بغضّ النظر عن مدى قوة الخلافات بين موسكو وواشنطن بشأن رحيل الرئيس الأسد من السلطة، وفي حال حدوث فوضى أو إقامة نظام إسلامي سنّي راديكالي.

والواقع أن نقطة الخلاف الرئيسة بين موسكو والعواصم الغربية والتركية والعربية وإسرائيل تمثّلت في إصرار الروس على أن حل الأزمة السورية يجب أن يكون في أيدي السوريين أنفسهم، وأنه يتعيّن على الأطراف الخارجية الإمتناع عن التدخّل لفرض الحلول الإستنسابية المناسبة لها، على دمشق.

هكذا أصبحت الأزمة السورية تمثل نقطة تحوّل في سياسة موسكو الخارجية. فلم تعد روسيا ذلك المتفرّج السلبي الذي لا يفعل شيئاً سوى الغضب، كما كان حالها في العراق في العام ٢٠٠٣، أو المرافق العاجز والحزين، كما كان حالها في ليبيا في العام ٢٠١١. فمنذ وقت مبكر، اتّخذت روسيا موقفاً واضحاً، ولم تتوانَ عن الدخول في خلاف قوي جداً مع الولايات المتحدة وأوروبا، كما تحمَّلت وطأة ازدراء الشعوب الغربية والعربية لها، ورفضت الضغوط التي مورست عليها لتغيير موقفها. في الوقت نفسه، أظهرت إستعدادها للتعاون مع الأطراف الأخرى، وخاصةً واشنطن، على أساس الندّ للندّ مع مراعاة الإحترام المطلوب للقانون الدولي التقليدي.

ومن أبرز تجلّيات الخلاف الروسي – الأميركي في هذا المجال إعتراض روسيا، إلى جانب الصين، على أربعة قرارات لمجلس الأمن الدولي كانت تستهدف فرض عقوبات على النظام السوري. هذا التباين بين الرؤيتين الأميركية والروسية أدخل العلاقات بينهما في مرحلة تشنج ملفتة، أسهمت في عدم قدرتهما على

التوصل إلى إتفاق موحّد بشأن موعد مؤتمر جنيف ٢ المزمع عقده، للتوصّل إلى حلّ سياسي ودبلوماسي للأزمة السورية الدامية. ومن الناحية العملية، فإنّ ما يجري اليوم في سوريا لا يمسّ البلد بعينه فحسب، إنّما هو موجّه ضد روسيا أيضاً. فالصراع الدائر بين الجيش السوري والمجموعات المسلّحة التكفيرية التي أتت إلى سوريا من جميع أصقاع العالم، جعل مستقبل منطقة الشرق الأوسط قاتماً وغامضاً، وهو أمر ينعكس سلباً، لا على أمن دول الجوار ومصالحها فحسب، بل يهدّد أيضاً المصالح الروسية الحيوية في سوريا، والحضور الروسي في البحر الأبيض المتوسط، فضلاً عن خشية روسيا من فقدان نفوذها عند حدودها الجنوبية. ففي حال إنتصار المجموعات التكفيرية والمتطرفة، فإن ذلك يعني أنّ الإضطرابات ستنتقل إلى خاصرة روسيا الرخوة في "القوقاز". ولذلك، فإنّ من مصلحة موسكو أن تفكّر بشكل إستراتيجي، وأن تجد لنفسها موطئ قدم في الشرق الأوسط، من خلال إجادة التعامل مع الأزمة السورية ومحاولة حسم نتيجة الصراع لما فيه مصلحة الشعب السوري، بعيداً عن مصالح المجموعات التكفيرية ومن يدعمها، وبأن تسجّل نصراً إستراتيجياً على المجموعات التي ستحاول زعزعة إستقرار الجمهوريات القوقازية في الإتحاد الروسي مستقبلاً.

لذلك هرعت روسيا بسلاح جوها المتطوّر لإنقاذ الدولة السورية ورئيسها ومنعهما من السقوط بعد أن وصلت قوات المعارضة إلى حدود مدينة اللاذقية حيث تقبع قاعدتها البحرية. وقامت روسيا بمهمتها على أحسن وجه، فانتعش الدور الإقليمي الروسي من جديد، وأمسك بوتين بالملف السوري فارضاً أجندته في المنطقة على الحلفاء والخصوم في آن معاً، مشيراً لأميركا أنها لن تفلت بما فعلته في أوكرانيا من دعم صريح لخصومه هناك، وأن من يود أن يحلّ الأزمة في سوريا ومنطقة الشرق الأوسط عليه التوجه الى موسكو قبل أي شيء.

بالرغم من ذلك نادت الدبلوماسية الروسية ولا تزال تنادي بالحلّ الوحيد للأزمة السورية، وهو الحلّ السياسي القائم على الحوار بين جميع مكونات المجتمع السوري من دون إقصاء أحد إلا من أراد إقصاء نفسه. ومن أجل ذلك دخلت موسكو في معركة دبلوماسية حادّة مع واشنطن من أجل عقد مؤتمر "جنيف ١ " والتمهيد لمؤتمر "جنيف ٢ " لبلورة الحلّ السياسي. وبالفعل، فقد نجحت الإدارة الروسية في فرض تصوراتها على المحور المناهض للحكومة السورية، فاجترحت الصفقة الكيميائية التي جنّبت سوريا حرباً عالميةً على أرضها لم يكن أحد يقدّر حجم تداعياتها.

وبالرغم من كل شيء، فإن إسرائيل تتخوف من أن ينطوي أي إتفاق سياسي مفترض حصوله، إلى تعزيز النظام السوري وعلى رأسه الرئيس بشار الأسد، مما يؤدي إلى تعزيز حزب الله والحضور الإيراني على حدود إسرائيل. على هذه الخلفية، أكد الرئيس الإسرائيلي رؤوبين ريفلين ضرورة التنسيق بين إسرائيل وروسيا إزاء الخطر الذي يمثله على حد تعبيره كل من تنظيم «داعش» وكذلك حزب الله ومعه الجمهورية الإسلامية في إيران. وبحسب مصدر إسرائيلي رفيع، أكد ريفلين للرئيس الروسي أن تعزيز قوة إيران وحزب الله في سوريا سيضر بمصالح إسرائيل وروسيا على حدٍ سواء.

في سياق متصل، رأى الرئيس السابق للموساد، افرايم هليفي، أن الرئيس الروسي على عادته احتاج إلى مبالغة دراماتيكية ليعلن أن مهمة روسيا العسكرية جرى إنجازها، ولهذا أعطى أوامره للبدء بسحب الجزء الأساسي لقواته المنتشرة في سوريا. لكن هليفي أكد أن الوجود الروسي سيبقى ولا سيما الجوي لفترة غير محددة، وسيجري تعزيزه إذا تجددت حاجة روسية أو سورية إليه.

إلى ذلك، أكد أيضاً على أهمية العمل الدبلوماسي الإسرائيلي في مقابل المناورات الصاروخية الإيرانية، إلا أنه رأى أن الأكثر أهميةً هو محاولة إسرائيلية جدية للبحث بعمق في جوهر علاقات إسرائيل المتطورة مع روسيا، وقد يؤدي قيام الروس بخطوة تكبح الإهتمام الإيراني بمنظومات إطلاق الصواريخ، إلى فائدة كبيرة للطرفين. واعتاد الإسرائيليون الترويج طوال السنوات الماضية في روسيا لمقولة أن «المسافة بين طهران وتل أبيب تساوي المسافة بين طهران وموسكو».

هل يغير التدخل الروسي موازين القوى في المنطقة؟

روسيا التي قدمت بسلاح جوها المتطوّر لإنقاذ الدولة السورية ومنعها من السقوط بعد أن وصلت قوات المعارضة المسلحة الى حدود مدينة اللاذقية حيث تقبع قاعدتها البحرية، قد قامت بمهمتها على أحسن وجه لحفظ مصالحها ولإستعادة الدور الإقليمي الروسي من جديد، وصولاً إلى إمساك بوتين بالملف السوري فارضاً أجندته في المنطقة على الحلفاء والخصوم معاً، مشيراً لأميركا أنها لن تفلت بما فعلته في أوكرانيا من دعم صريح لخصومه هناك، وأن من يود أن يحلّ الأزمة في سوريا ومنطقة الشرق الأوسط عليه التوجه الى موسكو قبل أي شيء.

في هذا السياق يعتبر أمير بوحبوط، محلل الشؤون العسكرية في موقع «والا» الإستخباري الإسرائيلي، أنّ التدخل الروسي في سوريا من شأنه أن يغيّر موازين القوى في منطقة الشرق الأوسط. ويضيف أن العلاقة بين سوريا وروسيا تعود لعشرات السنين، ومنذ اندلاع الأحداث الدموية في سوريا (٢٠١١) رفضت روسيا التخلي عن حليفتها. وقد تطوّر الموقف الروسي من تقديم الإستشارات العسكرية النظرية إلى تقديم إمدادات الأسلحة والخبراء العسكريين، ثم أخيراً توفير قوات جوية إستخباراتية روسية داخل الأراضي السورية.

ولفت المحلل إلى أن الموقف الروسي بالتدخل، جاء بسبب الخوف من فقدان موطئ قدم مهم وأخير لروسيا في المياه الدافئة في الشرق الأوسط، وانتقاله بالتالي إلى النفوذ الأميركي المباشر، بالإضافة إلى الخوف من تهديدات فصائل إرهابية شيشانية موالية لداعش، بشنّ عمليات تستهدف المصالح الروسية الحيوية.

ورأى بوحبوط أن التواجد الروسي في سوريا سوف يحدّ من قدرة الجيش الإسرائيلي على تنفيذ أي عمليات داخل سوريا، في ظل وجود الطائرات والأسلحة الروسية، وأيضاً رادارات وأجهزة الرصد والتعقب، المتطورة للغاية، والتي يمكن أن ترصد وتردع أي عملية عسكرية للطائرات الإسرائيلية داخل سوريا.

ويؤكد بوحبوط أن إسرائيل بمفردها لن تتمكن من مجابهة الوجود الروسي في سوريا، وأنها لن تسعى للإحتكاك به إلا إذا لاقت دعماً مستميتاً من جانب الإدارة الأميركية، في حين أن زيادة التدخل الروسي في سوريا هو دليل على توتر العلاقة بين الإدارة الأميركية وإسرائيل بشكل غير مسبوق، وهو أيضاً إشارة لدول مثل مصر مفادها أن روسيا لا تترك حلفاءها مثلما تفعل الولايات المتحدة .

أما يوسي ميلمان المعلّق الأمني في صحيفة معاريف فيرى «أنّ ثمة تخوف إسرائيلي من أن يقلّص إستمرار الوجود الروسي في سوريا هامش المناورة أمام الجيش الإسرائيلي عموماً وسلاح الجوّ خصوصاً، في الشمال». ويضيف: «إنّ إسرائيل لا تريد التدخل في الحرب الأهلية في سوريا، ومع ذلك فهي كانت تتدخل فيها بين حين وآخر كلما اعتقدت أن مصالحها الأمنية تتطلب هذا التدخل". وبحسب المعلّق، فإنّ هذه المصالح كما جاءت على لسان وزير الحرب (السابق) موشيه يعلون ورئيس الأركان ايزنكوت، هي «منع وصول السلاح الجديد والمتطور إلى حزب الله، وإجهاض تنفيذ عمليات ضد إسرائيل، وبذل الجهود من أجل عدم إلحاق الضرر بالطائفة الدرزية في سوريا»، على حدّ زعمه.

ويذكر ميلمان أن «سلاح الجو الإسرائيلي كان يتحرك كلّما توافرت معلومات إستخبارية، ومن دون الحاجة إلى التنسيق مع أي جهة، لكن من الآن فصاعداً ستضطر إسرائيل إلى تنسيق خطواتها مع روسيا».

كذلك رأى أن «إسرائيل قلقة من إرسال السلاح إلى إيران ومنها إلى سوريا وحزب الله، والتقديرات هي أنه وصلت إلى أيدي حزب الله في السنوات الأخيرة صواريخ بر– بحر من نوع ياخونت من صنع روسيا». وهو يرى أيضاً أن ثمة قلقاً آخر لدى إسرائيل يتركز حول جهود إيران التي تستمر منذ حقبة بمساعدة حزب الله على إقامة «شبكات مقاومة» في الجولان السوري.

ومع ذلك يرى ميلمان أن تكثيف التدخل الروسي في سوريا، إنما يحقق هدفاً إستراتيجياً إسرائيلياً من الطراز الأول، يتمثل في «إطالة أمد الحرب، الأمر الذي يعني إرهاق جميع الأطراف بشكل يخدم في النهاية المصالح الإسرائيلية». ويضيف "إن إطالة أمد المواجهة الدائرة في سوريا، سيفضي إلى تقليص فرص تورّط إسرائيل بشكل مباشر في سوريا، ما يمكّن تل أبيب من تحقيق مصالحها بصمت، ومن دون دفع أثمان سياسية وأمنية كبيرة".

ونقلت صحيفة هآرتس العبرية عن وزير الدفاع السابق موشيه يعلون، تأكيده أن «إسرائيل لديها هي الأخرى مصالح في سوريا، وستتحرك للدفاع عن تلك المصالح من دون الحصول على إذن مسبق من أحد، مثلما تحركت روسيا ومن قبلها أميركا وحتى فرنسا وبريطانيا، ونفّذت جميعها عمليات عسكرية في سوريا من دون استئذان أحد، حتى النظام السوري نفسه». ويضيف : «لدينا مصالحنا في سوريا وعندما تصبح مهددة سوف نعمل ونواصل العمل للحفاظ عليها، وقد نقلنا هذه الرسالة بوضوح إلى الرئيس الروسي فلاديمير بوتين». وفي حين اعتبرت الصحيفة أن «موسكو لم تهتم كثيراً برأي الولايات المتحدة وإسرائيل في العمليات التي تشنّها ضد الإرهابيين في سوريا»، فقد أكّد الوزير يعلون أنّ "بلاده" «لن تعترض على التدخل العسكري الروسي، لكنّها تضع خطوطاً حمراء حول مصالحها في سوريا، ولن تسمح لأحد بتجاوزها أياً كانت قوته، وأنّ حصول تنظيمات متطرّفة وإرهابية على الأسلحة يعد خطاً أحمر، لكنّ إقامة قواعد عسكرية إيرانية تهدّد إسرائيل، تمثل خطاً أحمر أيضاً".

من ناحية أخرى رأى يعقوب عميدرور، الرئيس السابق لمجلس الأمن القومي، أنّ التدخل العسكري الروسي في سوريا هو حصيلة ثلاثة أسباب: ضعف المجتمع الدولي، وفشل أوروبا في مواجهة مشكلة

اللاجئين، والتبدل الكبير في موقف الولايات المتحدة وقبولها الضمني بالدور الإيراني– الروسي في المنطقة. وفي هذا السياق يطرح المحللون الإسرائيليون أسئلة حساسة هي:

١ – هل سيغيّر الوجود العسكري الروسي قواعد اللعبة السائدة على الحدود مع سوريا ولبنان، وهل سيحدّ من حرية التحرك الإسرائيلي في الأجواء السورية؟

٢– هل سيؤدي الوجود الروسي إلى تقليص نفوذ إيران في سوريا ولبنان، على الرغم من التحالف الوثيق بين البلدين؟

٣ – هل آن الأوان كي تقوم إسرائيل بتوسيع نفوذها في جنوب سوريا وهضبة الجولان لمنع تعاظم قوة المقاومة والتنظيمات الجهادية المتطرفة؟

٤ – ما الدور الذي يمكن أن تؤديه إسرائيل في التحالف الذي تقيمه روسيا لمحاربة داعش؟

أمام هذه الإشكاليات والتساؤلات، يرى المحللون الإسرائيليون أن لكلٍّ من روسيا وإسرائيل أهدافاً مشتركةً في منطقة كوباني (عين العرب). فإسرائيل تريد المحافظة على مناطق الأكراد المتعاطفين معها وإبقائها تحت سيطرة القوى الكردية نفسها، وبالتالي فمحاربة روسيا لتنظيم «الدولة» ومنع نشوب معارك بين الأطراف هناك، يصبّ في مصلحة الإسرائيليين، الذين يريدون أيضاً إستقطاب الأقلية الدرزية في منطقة جبل الدروز القريب من الجولان المحتل.

بإختصار يمكن تعداد خمسة أسباب تدفع الرئيس بوتين لدعم الرئيس بشار الأسد ونظامه في سوريا:

١ – **حماية المصالح الروسية**، وهي مصالح إقتصادية وعسكرية كبيرة وخصوصاً القاعدة العسكرية التابعة للبحرية الروسية في مدينة طرطوس، والموجودة هناك منذ أيام الإتحاد السوفييتي.

٢ – **المحافظة على المصالح الإستراتيجية**، حيث يبعث الرئيس بوتين رسالة للعالم من خلال تدخله في سوريا مفادها أن روسيا لا تزال قوة يعتد بها على الساحة الدولية، وخصوصاً بعد الإطاحة بحلفاء مثل صدام حسين ومعمر القذافي.

٣ – **قتال الجماعات الإسلامية**، حيث يوجد قلق في الكرملين من تنامي هذا الخطر الذي أدى لاستهداف روسيا بعدد من الهجمات نفذها إسلاميون من الشيشان منذ العام ١٩٩٠.

٤ – **دعم الرئيس بوتين داخلياً**، حيث أن العقوبات الإقتصادية المفروضة على روسيا بعد ضمها لشبه جزيرة القرم من أوكرانيا، وتدني أسعار النفط دفع الملايين من المواطنين الروس للدخول في الطبقة الفقيرة، والعمليات في سوريا تشغل الناس عن الأوضاع الداخلية وترفع الإعتزاز بالمشاعر الوطنية.

٥ – **بيع الأسلحة**، حيث أن العمليات الروسية في سوريا وعمليات استعراض الأسلحة من طائرات وصواريخ وأنظمة عسكرية يعتبر دعاية للتصنيع العسكري الروسي.

الجدير بالذكر هو أن نسبة خمس سكان إسرائيل تنحدر من أصول سوفياتية سابقة، ما يشكل رافعة معقولة لتنمية العلاقات بين الجانبين في كل حال. كما أن إحتفاظ موسكو بعلاقات جيدة مع كل من طهران وتل أبيب يؤمن لها فرصة إطلاق مبادرات تسوية لقضايا المنطقة المختلفة بتكلفة زهيدة نسبياً، الأمر الذي يضمن مكاناً لروسيا على طاولات التفاوض المقبل لقضايا المنطقة.

ومن المنطقي والمفهوم أن تحاول موسكو إعادة تقييم علاقاتها مع القوى الإقليمية في المنطقة لتعظيم الفوائد من تدخلها العسكري، فالأبواب الخلفية للتفاوض مع تركيا ليست موصدة تماماً، وهناك مصلحة مشتركة روسية – تركية في تحسين العلاقات المتشنجة. تركيا تريد هامش مناورة أوسع بدلاً من وضعها الراهن، أما موسكو فلا تريد حصر خياراتها في المنطقة بطرف إقليمي واحد، لأنها أصبحت ببساطة، منذ دخولها العسكري في سوريا، لاعباً إقليمياً كبيراً في الشرق الأوسط.

سوريا إلى أين بعد التدخل الروسي؟

قال رئيس الإستخبارات الإسرائيلية اللواء هرتسي هليفي، في محاضرة ألقاها في "مؤتمر هرتسليا" الأخير في حزيران الماضي: "إن إسرائيل لا تريد أن ينتهي الوضع في سوريا بهزيمة داعش، وخروج القوى العظمى من المنطقة وأن نبقى بالتالي مع حزب الله وإيران مع قدرات أفضل". واعتبر رئيس الهيئة السياسية– الأمنية في وزارة الأمن الإسرائيلية عاموس جلعاد أن التهديد الأكبر على إسرائيل كان ولا يزال من قبَل إيران .

من ناحية أخرى يسعى الكيان الإسرائيلي لأن يكون مُحدداً رئيساً في مسار الأحداث في سوريا، ويريد أن يفرض "شروط اللعبة" بما يتوافق مع مصالحه أو على الأقل بما لا يتعارض معها. ويراقب الكيان الإسرائيلي بقلق بالغ الأحداث في سوريا، ويحفل إعلامه ومراكز دراساته بهذا الخصوص بالتصريحات والتحليلات

والأبحاث والتوقعات من المفكرين السياسيين والأمنيين والعسكريين. غير أن ما يجمعهم هو حالة القلق والإرتباك فيما يتعلق بالمستقبل السوري، وعدم وجود مسار واحد مُتوقَع يمكن التعامل معه.

الرغبات التي عبَّر عنها بعض القادة الإسرائيليين، أمثال الرئيس السابق شمعون بيريس ووزير الدفاع السابق إيهود باراك في حصول السوريين على حريتهم وقيام سوريا ديمقراطية، كانت من باب العلاقات العامة والإستهلاك الإعلامي. إذ إن معظم الإسرائيليين، حسب ما يؤكد إيال زيسر، رئيس دائرة تاريخ الشرق الأوسط في جامعة تل أبيب، لا يهتمون بمشاعر ولا طموحات الشعوب المجاورة أو ديمقراطيتها أو تحقيق العدالة والرفاهية لها. إن ما يثير إهتمام الإسرائيليين بشكل أساسي هو أمنهم، "وهذا ما يفكر فيه الإسرائيلي العادي وبالتالي حكومته".

لقد استمتع الإسرائيليون بنحو أربعين سنة بحدود هادئة مع سوريا، وهناك الآن إجماع إسرائيلي على أن سوريا التي عرفها الإسرائيليون طوال تلك الفترة لن تعود. وأيّاً يكن السيناريو المحتمل فإن مخاطر التعامل مع جبهة سورية ساخنة قد ازدادت. غير أن الإسرائيليين مطمئنين إلى أنه طالما كان السوريين منشغلين في صراعهم الداخلي، فإن "إسرائيل" ستبقى بمنأى عن أية مخاطر حقيقية في المدى المنظور. لذلك فالإسرائيليون سعداء باستمرار حالة "تدمير الذات" في سوريا، واتخاذ الحرب شكلاً مذهبياً، ويرغبون في البقاء في الظل، طالما أن مسار الأحداث يصب في مصالحهم، ويُبعد الأنظار عن الصراع معهم بشأن الإحتلال والإستيطان. وعلى هذا الصعيد كتب أليكس فيشمان، المعلق العسكري في صحيفة يديعوت أحرونوت، في ٢٠١٣/٦/١٢ مقالاً إفتتاحياً بعنوان "دعوهم ينتحرون في هدوء"، معبراً عن سعادته بأن العالم العربي يحترق منذ سنتين، وأنه يُفني نفسه دون تدخل خارجي. وبعده بأيام كتب عمير ربابورات المعلق العسكري في صحيفة معاريف أن "العرب نسوا إسرائيل"، وأنهم منشغلون بصراعاتهم.

مصالح وأهداف إسرائيل في سوريا

تتلخص مصالح "إسرائيل" وأهدافها في سوريا بأن يتجه مسار الأحداث بما يخدم الجوانب التالية:

١ – **متابعة تدمير سوريا وثرواتها وإقتصادها وبناها التحتية**، وإفقار شعبها، وإعادتها عشرات السنين إلى الوراء.

٢ – **تمزيق النسيج الإجتماعي السوري**، بحيث ترتفع "جدران الدم" بين طوائف السوريين وأعراقهم، سواءً أكانوا سنة أم علويين أم دروزاً أم مسيحيين، أم عرباً أم أكراداً. وبحيث يأخذ الصراع الداخلي شكله الطائفي العرقي، الذي يُهدر طاقات السوريين ودماءهم، ويحرم سوريا من الوقوف على رجليها مرة ثانية.

٣ – **تدمير الجيش السوري وتفكيكه** واستنزاف إمكاناته ومكانته، في حرب عبثية يخوضها بدماء السوريين أنفسهم. وبالتالي يكون آخر الجيوش العربية التقليدية التي يمكن أن تُشكِّل خطراً محتملاً على الكيان الإسرائيلي، بعد تحييد الجيش المصري إثر معاهدة كامب ديفيد سنة ١٩٧٨، وبعد حلِّ الجيش العراقي إثر الإحتلال الأميركي للعراق سنة ٢٠٠٣.

٤ – **إنشاء نظام سياسي ليبرالي جديد في سوريا**، متوافق مع السياسة الأميركية في المنطقة، ومع منظومة "الإعتدال" التي تتبنى مسار التسوية السلمية والتطبيع مع "إسرائيل."

٥ – **أن يكون النظام السياسي السوري الجديد قوياً بما يكفي لحفظ الحدود مع "إسرائيل"**، وضعيفاً بما لا يكفي لعلاج آثار الصراع الداخلي، الإجتماعية والإقتصادية؛ بحيث يغرق في العشرين سنة المقبلة في مشاكله الداخلية ويتم إستهلاكه في وظيفة "رجل الإطفاء" في مواجهة "الحرائق" الداخلية.

٦ – **جرُّ إيران وحزب الله إلى الحرب الداخلية في سوريا، واستنزافهم فيها**، وإنهاكهم عسكرياً واقتصادياً، وتأجيج حرب طائفية سنية شيعية لا تجلب سوى الدمار للجميع، ولا تستفيد منها سوى "إسرائيل" وحلفاؤها فقط.

٧ – **منع جماعات "الإسلام السياسي" والجماعات المعادية لـ"إسرائيل" من الوصول إلى سدَّة الحكم في سوريا**. ومنع وصول الأسلحة النوعية أو الأسلحة الكيماوية إلى أيدي ما تسميه "إسرائيل" وأميركا جماعات "إرهابية متطرفة".

٨ – **إن لم ينشأ نظام سياسي مقبول إسرائيلياً، فستحبذ "إسرائيل" الدَّفع باتجاه قيام كيانات علوية وسنية ودرزية وكردية**، تؤدي إلى تقسيم سوريا وتحويلها إلى دويلات طائفية وإثنية متناحرة .

ليست "إسرائيل" في عجلة من أمرها بشأن تحقيق هذه الأهداف ولاسيما سقوط نظام الرئيس بشار الأسد. وقد كان موقفها سابقاً ينبع من فكرة تقول: "شيطان تعرفه خير من شيطان لا تعرفه"، وبالتالي لم تكن تميل إلى تغيير النظام "الممانع" في سوريا إلى نظام لا تعرف كيف ستكون درجة عدائه لها. غير أنه عندما

فرضت الأحداث المأساوية في سوريا الحقائق على الأرض، أصبحت "إسرائيل" ومعها أميركا تتعامل مع إحتمال سقوط النظام بشكل أكثر جدية.

وكان من الواضح أن الطريقة الأميركية (التي تقود المسار الغربي والأوروبي) ومعها "إسرائيل"، تفضل إطالة أمد الصراع في سوريا إلى أطول فترة ممكنة، حتى تحدث أكبر درجة من الإستنزاف لسوريا وإمكانياتها الإقتصادية والعسكرية، وأكبر درجة من الإنهاك والتمزق الإجتماعي والطائفي للشعب السوري بحيث تتوفر في النهاية أفضل ظروف ممكنة لابتزاز القوى السياسية المنهكة في سوريا، ولفرض الشروط والرؤية الغربية الإسرائيلية عليها.

كما يمكن بناءً على ذلك فهمُ حظر الأسلحة على المعارضة السورية إلا بما يكفي لاستمرار الصراع، وفتح المعونات أو تضييقها وفق الأداء الميداني على الأرض، وبما لا يسمح لأي من الطرفين بحسم المعركة. وإذا كان ثمة رغبة في عدم بقاء نظام الرئيس الأسد، فإن هناك رغبة أشد في أن يصب سقوط النظام في المصلحة الأميركية – الإسرائيلية. وبالتالي، فإن ترتيبات ما بعد الأسد تشغل بال الأميركيين وحلفائهم، أكثر مما يشغلهم نزيف الدماء وآهات الشعب السوري.

من ناحية أخرى حللت مجلة فورين بوليسي الأهداف والرغبات الإسرائيلية، بالقول إنه يوجد عائد جيد محتمل من الأزمة السورية بالنسبة لإسرائيل، فانتصار الأسد يعني إنتصار حزب الله وإيران، في حين أن إنتصار الدولة الإسلامية (داعش) أو جبهة النصرة التابعة للقاعدة سيترك دمشق في أيدي المتطرفين ويخلق نظاماً عدوانياً ضدهما. بهذه الكلمات، افتتحت صحيفة "فورين بوليسي" الأمريكية تقريرها حول زيارة الجنرال نيكولاي بوجدانوفسكي، النائب الأول لرئيس هيئة الأركان العامة الروسية، لإسرائيل والتي تعتقد أنها أتت من أجل التنسيق بين القوات الإسرائيلية والجيش الروسي بشأن الحرب في سوريا. وقالت إن أفضل سيناريو بالنسبة لبنيامين نتنياهو، رئيس الوزراء الإسرائيلي، هو في حرب الإستنزاف المستمرة، والتي تشغل أعداء إسرائيل بقتال بعضهم البعض بدلاً من التوحد ضدها. فبعد أكثر من أربع سنوات من الحرب الداخلية الرهيبة والخسائر المدمرة، لم يعد للجيش السوري قوة تكافئ مع الجيش الإسرائيلي. وتم من قبل تفكيك الأسلحة الكيميائية الخاصة بالأسد، نتيجة الضغوط الأميركية، والسماح للحكومة الإسرائيلية بوقف تزويد مواطنيها بأقنعة الغاز للمرة الأولى منذ أكثر من ٢٠ عاما.

وذكرت المجلة أن إسرائيل أول من لاحظ الحراك الروسي الجديد وتحدثت عنه في مقال بعنوان "الطائرات الروسية في سماء سوريا" في النسخة الإنكليزية من صحيفة "يديعوت احرنوت"، وأشارت إلى أن هذا الحراك يقلق إسرائيل لأن تدخل روسيا سيؤدي لتغيير قواعد اللعبة في العالم العربي وخاصةً بعد قرارها بنشر عشرات الطائرات المقاتلة من نوع سوخوي في شمال سوريا، جنباً إلى جنب مع العديد من الأنظمة المضادة للطائرات ومئات الجنود، التي قد تكون بالنسبة للرئيس السوري فرصة تسمح له بتأمين سلامة مصير نظامه لبضع سنوات أخرى.

وأوضحت الفورين بوليسي أن نتنياهو، خلال زيارة عاجلة إلى موسكو حاول إقناع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بمنع أي إحتكاك مباشر مع القوات الجوية الإسرائيلية في الأجواء السورية، كما تراجع نتنياهو عن توجيه اللكمات ضد التدخل الروسي. ففي مقابلة أجرتها معه شبكة "سي إن إن" رفض نتنياهو تكرار إنتقادات الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي للعمليات العسكرية الروسية في سوريا قائلًا "ذهبت إلى موسكو لتوضيح ضرورة تجنب الإشتباك بين القوات الروسية والقوات الإسرائيلية. نحن لا نريد أن نعود إلى تلك الأيام عندما كانت روسيا وإسرائيل في موقف الخصومة". وشدد نتنياهو على أن إسرائيل ستستمر في اتخاذ الإجراءات اللازمة "إذا أراد أحد إستغلال الأراضي السورية لنقل السلاح النووي لحزب الله". وصرحت مصادر دبلوماسية إسرائيلية في حوارات على التلفزيون الإسرائيلي أن هذا يعني موافقة نتنياهو على الخطوات الروسية.

لكن هذا لا يعني أن إسرائيل مترددة تجاه المناورة العسكرية لبوتين، فإسرائيل أقرت بأن هناك سببين من شأنهما إقناعها بالدخول في الحرب السورية وهما : في حال المساس بسيادتها والتعرض لهجمات من داخل سوريا، أو عندما تكتشف محاولات لتهريب أسلحة متطورة من سوريا إلى حزب الله في لبنان.

وفي خطابه في الجمعية العامة للأمم المتحدة إتهم رئيس الوزراء الإسرائيلي إيران ببدء عملية نقل الأسلحة إلى حزب الله في لبنان، محدداً أنواع الأسلحة وأهمها صواريخ ياخونت. والسبب في أن صواريخ ياخونت تقلق القيادة الإسرائيلية أكثر من أي سلاح آخر هو أن مداها يصل إلى ٢٠٠ ميل تقريباً ودقتها شبه مثالية، ما يعرض السفن الإسرائيلية في عرض البحر للخطر، وبوسعها أن تشل اثنين من الموانئ الإسرائيلية الرئيسة، حيفا وأشدود، في أي صراع عسكري مستقبلي مع حزب الله.

ورأت الفورين بوليسي أنه من الصعب الإعتقاد بأن إسرائيل ستخطر الروس قبل القيام بأي ضربات ضد مخازن أسلحة، من المفترض بها أن تنقل إلى المقاومة، وذلك لأن بوتين سيجد صعوبة في السماح بشن هجمات ضد حلفائه، في حين ستقلق إسرائيل من أن يبلغ الروس قوات حزب الله أو الأسد قبل حصول هجمات من هذا النوع.

وتعتقد المجلة أنه طالما أن الروس يساعدون الرئيس الأسد على استقرار خطوطه العسكرية، فإن إسرائيل لن تعترض. لكن إذا امتد الدعم الروسي – الإيراني ليسمح للنظام باستعادة السيطرة على مناطق مؤثرة على الأمن الإسرائيلي، فستعتبر القيادة الإسرائيلية هذا الأمر تطوراً مقلقاً.

واختتمت الصحيفة تقريرها بقولها، "إنه على الرغم من أن العلاقة الروسية مع إسرائيل تحسنت بشكل ملحوظ عن الستينات والسبعينات، عندما كان الإتحاد السوفييتي مورداً أساسياً للأسلحة للعالم العربي وكان ينظر إلى الصراع العربي – الإسرائيلي باعتباره مجرد جبهة من جبهات الحرب الباردة، إلا أن إسرائيل ستظل تشكك باستمرار في نوايا موسكو في المنطقة".

خاتمة:

لقد عمل الرئيس بوتين منذ العام ٢٠٠٠ على تعزيز العلاقة مع كيان العدو، وقد عبّر عن ذلك المتحدث باسم الرئاسة ديمتري بيسكوسن في جوابه عن سؤال حول كثافة زيارات نتنياهو لروسيا، حيث قال بأنها "تخلق أساساً إيجابياً جداً للتقدم في مجال التعاون الثنائي في الزراعة والتكنولوجيات، وغيرها من القطاعات".

وعلى الرغم من التعارض بين الجانبين في العديد من الملفات (الأزمة السورية، الملف النووي ومساعدة "إسرائيل" للمجموعات التكفيرية..)، إلا أن كُلاً من روسيا و"إسرائيل" يسعى إلى تطوير العلاقة المتبادلة بينهما في المجالات كافة، عبر إبرام الإتفاقيات، وكان آخرها تعويضات التقاعد التي ستدفعها روسيا للمهاجرين الروس المتقاعدين في الفترة بين ١٩٧٠ و ١٩٩٢، بمبالغ مالية تتراوح بين ١٢٠ و٢٥٠ دولاراً شهرياً للشخص، وإتفاقيات في مجال الزراعة والصناعة.

أما عن الأسباب التي سرّعت هذا التقارب المشترك فهي عديدة، لعل أهمها:

١ – دخول روسيا على خط الأزمة السورية، وحاجة "إسرائيل" إلى التنسيق الأمني معها في ما خص جبهة الجولان المحتل، وخوفها من أن تتحول إلى جبهة مقاومة ضدها، وفي ما خص عدم عرقلة عملها الأمني في سورية (عمليّتا إغتيال المجاهدين جهاد مغنية وسمير القنطار) وعدم عرقلة الضربات الجوية لمراكز تخزين السلاح الإستراتيجي المخصص لحزب الله، الذي يتم نقله من سورية إلى لبنان، وفي هذا المجال يقول نتنياهو "فهي (أي روسيا) تخدم أمننا القومي في هذه الأيام".

٢ – التمهيد الإسرائيلي لوضع اليد على الجولان في حال سقوط نظام الرئيس بشار الأسد.

٣– التفاهم على محاربة الإرهاب التكفيري الذي تدعمه "إسرائيل"، والذي يشكّل في الوقت نفسه خطراً على الأمن الروسي.

٤ – مراهنة الكيان الإسرائيلي على كسب الود الروسي، علّه يستفيد منه في بعض قرارات مجلس الأمن الدولي التي تخص القضية الفلسطنية.

٥ – وجود أكثر من مليون مهاجر روسي في "إسرائيل"، وغالبيتهم يميل إلى اليمين المتطرف، وهم كتلة وازنة في الإنتخابات، يعمل نتنياهو على كسبهم.

٦ – الدور الإقليمي الوازن والفاعل لروسيا، والذي يتطلّب أن تكون علاقتها جيدة مع مختلف أطراف الصراع في المنطقة.

٧ – حاجة كل من الطرفين للتعاون في المجالات الأمنية والعسكرية والإقتصادية (بلغ حجم العمليات الإقتصادية المتبادَلة في العام ٢٠١٤ ثلاثة مليارات دولار).

لكن بعض الساسة في "إسرائيل" لا يولون أهمية لهذا التحالف، في حين أن روسيا تتعاطى مع جميع الأطراف من منطلق المصلحة الروسية الوطنية البحتة، فلا ضير عندها أن تدعم "إسرائيل" في مكان ما وتعمل على حماية حدودها الشمالية، وأن تكون مستعدة لأن تساهم في حل أزمتها مع الفلسطينيين، وفي الوقت ذاته تعمل على منع سقوط نظام الرئيس بشار الأسد، العدو اللدود لـ"إسرائيل".

مع بدء التدخل العسكري الروسي في سوريا أواخر العام ٢٠١٥، أصبح رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو دائم الحضور في موسكو. وكان الهدف من زياراته المتكررة تعزيز التنسيق والتوافق المشترك تفادياً

لأي إشكال غير محمود بين الطرفين . فهل سارت الأمور على ما يرام مع روسيا في الساحة السورية والدولية؟

الواقع أن عقدة الملف النووي الإيراني مرّت من دون أن ينجح نتنياهو بإقناع موسكو بعرقلتها، رغم كل التودد الذي أبداه لبوتين في حينه. وبينما وُضع ملف إيران في أرشيف الكرملين على الرف، ما يزال الملف السوري مفتوحاً، ذلك أنه في الزيارة الأولى التي قام بها نتنياهو لموسكو بعد نشر القوات الروسية في سوريا، اتفق الطرفان على إنشاء خط ساخن بينهما للتنسيق من أجل تجنب وقوع حوادث في الأجواء السورية. وما يزال ذلك الخط مشفراً، ويحرص الطرفان على عدم كشف الأحاديث التي تجري عبره. إلا أن هذا الإنسجام بين الطرفين في سوريا لم يلغِ الخطوط الحمراء التي رسمها نتنياهو حول الحدود الشمالية، واقتراب رجال المقاومة منها. من أجل ذلك، كان على نتنياهو كبت أي غضب قد يسببه التحليق الروسي فوق سوريا، ليقينه أن سوء التفاهم مع بوتين قد يهدم كل الإجراءات التي حفظت أمن إسرائيل من الجوار المضطرب.

ويمكن معرفة مدى إستعداد إسرائيل لتحمل الأخطاء الروسية من خلال ما كشفه رئيس الدائرة السياسية والأمنية في وزارة الدفاع الإسرائيلية عاموس جلعاد في تشرين الثاني ٢٠١٥، عن خرق المقاتلات الروسية للمجال الجوي الإسرائيلي، وفي واقع الأمر هو لم يقل خرقاً، بل سماه "عبوراً للمجال الجوي الإسرائيلي"، وأكد أن إسرائيل تدرك "الخطوات التي يجب القيام بها وكيفية منع التصعيد".

ويُلاحَظ بعد ذلك أن العملية العسكرية الروسية رسمت لنفسها حدوداً واضحةً، ومن ثم تم إخماد الجبهة الجنوبية قرب الجولان بشكل فعال، بعد إقامة خط ساخن مع عمّان، فتوقف إطلاق النار في تلك الجبهات . ولا شك بأن أي خلل، أو مساعٍ للتوسع في استراتيجية القتال الروسية نحو الجنوب ستكون خلطاً جديداً للأوراق، قد يستدعي تدخلاً إسرائيلياً عنيفاً في الجانب الجيواستراتيجي المتعلق بهضبة الجولان، فضلاً عن الرد العسكري لمنع تقدم أي عناصر مدعومة من إيران تشكل تهديداً لها.

تبدو العلاقات الروسية – الإسرائيلية لامميزة ولا سيئة، فكلا الطرفين يتعامل بمنطق الإنتهازية البراغماتية والمصالح المتبادلة، فعلاقتهما جافة ينتابها أحياناً بعض التوتر والتباين في العديد من الملفات، كالملف النووي الإيراني، وتزويد كل من إيران وسوريا بصواريخS300 ، لكن علاقتهما تبقى عموماً جيدة . فإسرائيل تعد روسيا دولة مؤثرة جداً على الصعيد الدولي وتتمتع بعلاقات مميزة مع أعداء إسرائيل في المشرق العربي

وتزودهم بالسلاح، إضافةً إلى مصالحها في المنطقة المحيطة بها، كما تتقاطع مصالحهما في محاربة تنظيم الدولة الإسلامية والحركات الإسلامية الأصولية في سوريا كونها الأقرب لسدة الحكم في حال سقوط نظام الرئيس الأسد .

لاشك أنه يوجد تفاوت كبير ما بين النظرتين الروسية والإسرائيلية حيال نظام الرئيس الأسد، فروسيا تعده آخر ما تبقى لها من مصالح إستراتيجية في حوض البحر المتوسط، ورغم أن إسرائيل ترى أيضاً أن إنهيار هذا النظام سيناريو مؤلم لها، إلا أن ظهور سوريا مجزأة ولا مركزية وعاجزة عن أداء وظائفها بعد الرئيس الأسد هو النموذج المفضل لديها.

كذلك تحرص دوائر صنع القرار في الكيان الصهيوني على إستغلال المنطلقات الواقعية للسياسات التي يتبعها الرئيس بوتين، المتحرّرة من أي أثرٍ لقيودٍ أخلاقية أو مبدئية أو أيديولوجية. فنظراً لأن بوتين اقتنع بوجوب ترسيخ شراكة إستراتيجية مع الكيان الصهيوني، فإنه لا يتردّد في الإقدام على خطواتٍ تحمل دلالاتٍ وأبعاداً ذات رمزيةٍ خاصة، لتوفير بيئةٍ تضمن تحقيق هذا الهدف. ولا تسهم خطوات بوتين في تعزيز مكانة إسرائيل الدولية فحسب، بل إنها تضفي أيضاً مصداقيةً على المنطلقات الأيديولوجية لخطاب اليمين الحاكم في تل أبيب. فلم يكن من المصادفة أنه في الوقت الذي يفرض فيه الإتحاد الأوروبي قيوداً على تسويق البضائع المنتجة في المستوطنات اليهودية المقامة في الضفة الغربية والجولان، سمحت روسيا بتنظيم معرض إسرائيلي لعرض هذه المنتجات في أحد معارض موسكو. وقد وثقت كاميرات التلفزة الإسرائيلية مرتادي المعرض من الروس، وهم يتفحصون منتجات المستوطنات من التمور التي أنتجت في مستوطنات «غور الأردن»، وخمور مستوطنات الجولان.

وأقدمت روسيا على خطوةٍ ذات مضامين رمزية عميقة، عندما سمحت للوكالة اليهودية ووزارة الثقافة الإسرائيلية بتنظيم تظاهرة ثقافية في مسرح هارميتاز، أهم المسارح الروسية، لعرض ما يعرف بـ«وثائق البحر الميت» التي يزعم الصهاينة أنها تقدّم أدلة تاريخية على أحقية اليهود في أرض فلسطين.

وبعد أن ظلت روسيا ترفض لعقود مجرد مناقشة الطلب الإسرائيلي بمنح الحقوق التقاعدية لعشرات الآلاف من اليهود الروس الذين هاجروا إلى إسرائيل أواخر ثمانينات القرن الماضي ومطلع تسعيناته، فقد وقعت إتفاقاً ثنائياً ينظم إستعادة هؤلاء اليهود تلك الحقوق، على الرغم من الضائقة الإقتصادية التي تعانيها

روسيا. وقد ارتفع سقف التوقعات الإسرائيلية من روسيا، لدرجة أن نتنياهو ناقش مع بوتين خارطة المصالح الإسرائيلية التي يتوجب تحقيقها في أي حلٍ للنزاع القائم في سورية. وعلى الصعيد الإقتصادي، أقرّ نتنياهو بأنه طلب من بوتين الإستعانة بالخبرات الروسية في تطوير حقول الغاز التي سيطرت عليها إسرائيل في حوض البحر الأبيض المتوسط.